مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد الخامس عشر، العدد الثاني، ص139- ص169، يونيه 2007
ISSN 1726-6807, http://www.iugaza.edu.ps/ara/research/

# المعطى الدلالي لشعر المديح وطابعه الديني في عصر سلاطين المماليك والعثمانيين

**أ.د. نبيل خالد أبو علي**
قسم اللغة العربية – كلية الآداب
**الجامعة الإسلامية – غزة - فلسطين**

**تاريخ استلام البحث** : 2007/4/2م ، **تاريخ قبول البحث** : 2007/4/28م

**ملخص :** يحاول هذا البحث توجيه عناية الدارسين إلى عصرين زاخرين من عصور الأدب العربي – المملوكي والعثماني – أحاطت بهما أيدي المؤامرة فأخرت مكانتيهما وحطت من قدريهما ، وجعلت الدارسين يعرضون عن الخوض فيهما ، مسلمين بما أُلحق بهما من صفات الضعف والتخلف .

لذلك رأينا أن نبين في بداية هذا البحث أبعاد المؤامرة ، ثم نعرض بإيجاز لمظاهر الحياة العلمية والثقافية ، ثم نتناول المعطى الدلالي لفن المديح في العصرين كشاهد على مستوى الحركة الإبداعية ، وممثل للطابع الديني الذي طبع معاني العصرين وأمدهما ببواعث التجدد والازدهار .

# Semantic Aspects of Praise Poetry and its Religions Impact in the Mamloukite and Ottoman Age

**Abstract :**This research try to direct the researcher's attention for two period of ottoman and mamloky era surround many conspires that make its progress backward and deteriorated, this prevent the researchers to be involved on both era, Handed on what occur from characteristic of weakness and retardation thus we saw to explain at the begging to reject the conspire then represent briefly the vital signs of scientifical and cultural live and handling with the significant given Commendatory Lyric, in both era as a witness on the level of creative movement and represented spiritual issues which reflect the meaning of both era and provide with renews and Make-flourishes.

## كلمة لابد منها :

لم يُظْلَم عصر من عصور العربية كما ظُلِم العصران المملوكي والعثماني ، فقد شكك العديد من الدارسين في حكامهما وغمطوهم حقوقهم ، وحكموا على نتاجهما العلمي والأدبي بالضعف والانحطاط ، وأغفلوا ذكر فرسان الحلبتين ، من علماء وأدباء وشعراء .

اختلفوا حول إخلاص حكام العصرين للإسلام والمسلمين ، ومدى معرفتهم باللغة العربية ، وهل تهيأت الأسباب لوصولهم للحكم كما تهيأت للخلفاء الأمويين والعباسيين ، وكذلك للفاطميين في مصر والمغرب العربي والأيوبيين في مصر والشام ، أم أنهم قوة احتلال اغتصبت الحكم ثم سامت الناس خسفاً، وإذا حدثنا التاريخ عن جور أحد السلاطين المماليك والعثمانيين ، أو بعضهم ، فهل لم يحدثنا عن جور بعض حكام الدول السابقة ؟!

أظن أن الأمر معلقٌ على أصولهم غير العربية ، وما مس المماليك منهم من رق في بداية حياتهم، ثم كيف أضحوا سادة وحكاماً ، وكيف يحوزون شرف الدفاع عن العروبة والإسلام ، إضافة إلى حقد أعداء الأمة عليهم ، وامتداد هذا الحقد إلى أحفادهم الصليبيين ، الذين سعوا جاهدين إلى تشويه هذه الحقبة المشرقة ، فدسوا المفاهيم الخاطئة في مناهج التعليم في مطلع العصر الحديث(1)، هذه المفاهيم التي تُقرر سلفاً أن هؤلاء الحكام اغتصبوا السلطة ، وأن عصرهم عصر تخلف وانحطاط . ونشير في هذا المقام إلى "السير دنلوب" الذي خطط سياسة التعليم للدول العربية ، فعندما جاء "كرومر" إلى مصر كأول حاكم بريطاني فيها قال : "إن مهمة الرجل الأبيض الذي وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد هو تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن ، بحيث تصبح هي أساس العلاقات بين الناس"(2) ، ولتحقيق هذه الغاية عين قسيساً حديث التخرج من كلية اللاهوت بلندن يدعى "دنلوب" في منصب مستشار وزارة المعارف المصرية ، وجعل في يده كل السلطات الفعلية لوزارة المعارف ليتمكن من وضع سياسة تعليمية تحقق أهداف الصليبيين .

وقد اجتهد القس "دنلوب" في تحقيق رؤية قائده "كرومر" ، مستهدفاً المحاور الرئيسة الثلاثة للعملية التعليمية ، المناهج الدراسية ، والأساتذة ، والتلاميذ . فعمد إلى دس سموم حقده الصليبي في المناهج الدراسية ، وغرس مفاهيم خاطئة عن بعض الحقب التاريخية المشرقة بانتصار الإسلام والمسلمين ، خاصة العصر المملوكي الذي استأصل الوجود الصليبي من الشرق الإسلامي ، ساعياً إلى تجهيل التلاميذ، وصرفهم عن تراث أمتهم المجيد ، وكما يرى محمد قطب فإن سياسة "دنلوب" في تخطيط المناهج التعليمية لم تتوقف عند تهميش اللغة العربية ، وإبعاد الطلاب عن تعاليم دينهم الحنيف ، وتشويه تاريخ أمتهم ، وصرف أنظارهم عن تراثها المجيد ، واستبعاد الهجمات الصليبية على العالم الإسلامي وما ارتكبته من جرائم من المناهج الدراسية ، بل تجاوزت ذلك إلى مكافأة المدرسين المتميزين في تطبيق سياسة التغريب بإرسالهم إلى إنجلترا ، ليزداد صقلهم ويصاغوا من جديد صياغة أدق وأشمل ، ليستفاد منهم على نطاق أخطر ، فإذا ما عادوا يوضعون في مراكز التوجيه ، ليكون أثرهم في الإفساد أشمل وأوسع حتى

---

(1) وقع العالم العربي في قبضة الاحتلال الصليبي بعد سقوط الخلافة العثمانية عام 1351هـ / 1922م ، وفي سنة 1945م وقعت بريطانيا اتفاقية الجلاء عن مصر ، ثم حصل السودان منها على حق تقرير المصير في سنة 1953م ،وفي سنة 1962م حصلت الجزائر على استقلالها من فرنسا ، وكذلك نعمت اليمن بالحرية سنة 1962م ، والعراق سنة 1958م .

(2) محمد قطب : واقعنا المعاصر ، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر ، السعودية ، 1986م ، ص 216 .

إذا صار أحدهم في نهاية المطاف وزيرا للمعارف حطم من مقدسات قومه ، وفعل ما لم يكن يجرؤ "دنلوب" على فعله..(1) .

لقد حققت سياسة القس "دنلوب" نتائجها ، وأصبحنا نرى العديد من الدارسين والباحثين العرب يقررون سلفاً ما أراده الصليبيون من صفات لهذين العصرين ، ويجتهدون في التدليل عليها . وقد اعترف الصليبيون المحدثون بذلك ، وتفاخروا بما حققوه ، كما نرى في قول القس "زويمر"(2) مقرر مؤتمر المبشرين الذي عقد في القاهرة عام 1906م : "ليست مهمتنا تنصير المسلمين ، فهذا شرف ليسوا جديرين به ، ولكن مهمتنا هي صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام ، وفي ذلك نجحنا نجاحاً باهراً بفضل مدارسنا التبشيرية ، والسياسة التعليمية التي وضعناها للبلاد الإسلامية .."(3) .

وتبقى الحقيقة التاريخية التي تقرر أن المماليك والعثمانيين ليسوا قوة احتلال ، وأن عصرهم الممتد من عام 648 حتى 1351هجرية لم يسوده الجهل والتخلف ، فالمماليك - مثلاً - الذين اجتهد الدارسون في القدح في صفاتهم هم مماليك السلطان الأيوبي الملك الصالح نجم الدين أيوب ، الذين اصطفاهم واجتهد في تنشئتهم تنشئة عربية إسلامية ، ودربهم على الفروسية وفنون القتال ليكونوا قوام جيشه وذخر وطنه ، وبعد وفاة سلطانهم انتقل الحكم إليهم بطريقة طبيعية ، إذ حكمت بنت جلدتهم "شجر الدر" ، التي مسها الرق كما مسهم ، ومع بداية حكمها سنة 648 هجرية بدأ ما اصطلح المؤرخون والدارسون على تسميته باسم العصر المملوكي.

وأنهم كانوا خير خلف لخير سلف إذ تصدوا للزحف المغولي الهمجي على ديار المسلمين ، وقطعوا أيدي الدمار ، واجتثوا وجودهم من الشرق الإسلامي بأسره ، وكذلك قضوا على أحلام الصليبيين في البلاد التي تفيض عسلاً ولبناً(4) ، واستأصلوا إماراتهم وحصونهم من بلاد الشام واحداً تلو الآخر .

---

(1) راجع : واقعنا المعاصر 217 - 234 .

(2) زويمر مبشر بروتستانتي كان له نشاط واسع في البلاد الإسلامية ، وأوصى قبل موته أن يدفن في مقابر اليهود ، مما يدل على أصله اليهودي ، وحقده اليهودي والصليبي على المسلمين .

(3) واقعنا المعاصر 197 ، وانظر أيضاً ما قاله في المؤتمر التبشيري الذي عقد في القدس سنة 1935م . ص386 .

(4) حث البابا "أوربان الثاني" المؤتمرين في مجمع الأساقفة بمدينة كليرمونت عام 1095م على غزو المشرق الإسلامي ، ومما جاء في هذا الخطاب قوله : "وخلصوا الأراضي المقدسة من أيادي المختلسين ، وأنتم املكوها

أما اتهام هذا العصر باضمحلال الثقافة وانحطاط مستوى الأدب ، فهو اتهام لا أساس له من الصحة ، إذ لم يترك عصر من عصور العربية موسوعات وكتباً في شتى فروع المعرفة أكثر من هذا العصر ، ولم يضم عدداً من العلماء والأدباء أكبر من عددهم ، ألم يرث حضارتي المشرق والمغرب الإسلامي ، ويحسن وفادة العلماء والأدباء الفارين من وجه المغول في بغداد والفرنجة الصليبيين في الأندلس ؟! .

لقد أسهب القدماء في الحديث عن دور العلم وحركة التأليف ومجالس الأدباء في مدن مصر والشام، ويكفي في هذا المقام أن نذكر قول عبد الرحمن بن خلدون : "مصر أم العالم ، وإيوان الإسلام ، وينبوع العلم ، ومنارة الأدباء الفارين من وجه المغول حتى كثر روادها ، واكتظت جوانبها وأنديتها بطلاب العلم والمعرفة"(1) .

أما الحركة الأدبية فلم يختلف أداؤها عن أداء الحركة العلمية ، وقد رأينا اهتمام سلاطين المماليك باللغة العربية وعلومها ، وكيف اعتنوا بأمراء البيان وأسندوا إليهم أرفع المناصب في دواوين الدولة ، وحازوا احترام الناس حتى أضحوا قدوة وأنموذجاً يحفز الشباب على إتقان العربية ويجيدون البيان لعلهم يحوزون مكانة مثل مكانتهم .

وقد سار السلاطين العثمانيون على خطى المماليك ، وتوسعوا في الفتوحات الإسلامية حتى تمدد الإسلام في العديد من دول أوروبا إضافة إلى قارتي أسيا وإفريقيا ، وقضوا على الخطر الصليبي حينما اقتحموا عرينه وجعلوه تابعاً لدولتهم التي لا تغيب عنها الشمس ..

وبالرغم ما يقال عن انصراف السلاطين والأمراء عن منح الأعطيات والهدايا للشعراء ، وأن الشعر لم يعد حرفةً يرتزق منها الشعراء ، فقد استمر نهر الشعر العربي دفاقاً ، وحافظ على مكانته في نفوس الخاصة والعامة ، وكان التوجه الديني السائد في ذلك العصر باعثاً من بواعثه ، ورافداً من أهم روافد قوته ، حيث وجد في ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه معيناً لا ينضب ، ووسمت الثقافة الإسلامية معانيه وألفاظه وصوره بالميسم الديني . كذلك وجد في أعمال السلاطين والأمراء ، وبطولاتهم في التصدي لأعداء الدين والأمة ما أعانه على الارتباط بالطبع الصادق أكثر من ارتباطه بالرياء وبهرج الصنعة الزائفة .

---

لذواتكم ، فهذه الأرض كما قالت التوراة تفيض لبناً وعسلاً .." . راجع كتابنا : قصة الحروب الصليبية ، الطبعة الأولى ، غزة 1992م ، ص 13 .

(1) عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، المطبعة الأميرية ببولاق ، القاهرة 1321 هـ ، ص245 .

## الحياة العلمية والثقافية :

درج بعض الدارسين المحدثين على وصف العصر المملوكي بتخلف الحركة العلمية وانحطاط مستوى الحياة الأدبية والثقافية ، وقد أغفلوا ذِكر المفكرين والأدباء التي تُباهي بأسمائهم كتب الأعلام والتراجم، وتجاهلوا ما أنتجوه من موسوعات علمية وأدبية تشغل حيزاً كبيراً في مكتبة التراث العربي والإسلامي ، وقد أرجع الكثير منهم هذا التخلف والانحطاط إلى عدة أسباب أهمها - في رأيهم - جهل الأمراء والسلاطين المماليك باللغة العربية ، وعدم تشجيعهم العلماء والأدباء(1).

وهذا الموقف يجافي الواقع والحقيقة ، فكيف يجهل السلاطين اللغة العربية ويبقونها لغة رسمية للدولة ؟! ، وقد أشرنا فيما سبق إلى اهتمام المماليك بالتعليم ، وأنهم أنشأوا مدارس خاصة لأبناء جلدتهم ، وأنهم انتهجوا نهجاً صارماً لتنشئتهم على اللغة العربية وعلومها ، وعلوم القرآن والسنة ، ثم العلوم العسكرية وفنون القتال ، كما أشرنا إلى أسماء بعض العلماء المماليك البارزين مثل ابن إياس وابن تغري بردي وابن دقماق وابن شاهين ..**(2)** .

كذلك اهتم السلاطين بإتاحة فرصة التعليم المجاني للراغبين من كل فئات المجتمع ، حيث ساروا على سنة الأيوبيين في رعاية العلماء وطلاب العلم وتنشيط الحركة الفكرية ، وفاقوهم في بناء المدارس ودور العلم .

فعلى صعيد رعاية العلماء فإن المكانة الاجتماعية التي تبوأها العلماء ، وما وهبهم إياه السلاطين من إقطاعات زراعية ، وما أغدقوا عليهم من أموال ، لم تقتصر على علماء مصر والشام المواطنين ، بل امتدت هذه الرعاية لتشمل العلماء المهاجرين من بلدان المغرب ، والفارين من وجه زحف الفرنجة على الأندلس ، وكذلك الناجين من الطوفان المغولي الذي دمر بغداد وبعض مدن المشرق الإسلامي ، حيث أحسن المماليك استقبالهم ، وأحاطوهم بالرعاية ، وأجروا عليهم الأرزاق ، ومن هؤلاء العلماء نذكر - على سبيل المثال - علي بن موسى المعروف بابن سعيد المغربي ، صاحب كتاب المغرب في حلى المغرب ، وعلي بن مؤمن النحوي الحضرمي

---

(1) انظر مثلاً : - أحمد صادق الجمال : الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي ، طبعة الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة 1966 ، ص 35 . - قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، ص 170 . – محمود الربداوي : ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً ، طبعة دار قتيبة 1982م ، ص 34 . ويكفي في هذا المضمار النظر إلى المناهج الدراسية في البلدان العربية التي تبرر عدم تدريس هذا العصر بأنه عصر ركود وانحطاط .

(2) انظر حديث المقريزي عن تعليم المماليك في كتابه الخطط 372/3 .

الأشبيلي المشهور بابن عصفور ، حامل لواء العربية بالأندلس الذي أقام في حلب ، وعبد الرحمن بن خلدون ، وشمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان صاحب كتاب وفيات الأعيان ، ومحمد جمال الدين بن مالك صاحب الألفية المشهورة في النحو ، وغيرهم كثير ..([1]).

اهتم الأمراء والسلاطين بإنشاء المدارس وإلحاق المراكز التعليمية بالمساجد والزوايا والخوانق والربط ، وقد عبر بعض أهل ذلك الزمان عن دهشتهم من كثرة عدد المدارس ، من ذلك قول ابن بطوطة : "لا يحيط أحد بحصرها لكثرتها"([2]) ، وكذلك قول القلقشندي : "إن هؤلاء السلاطين بنوا من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها"([3]) . ومما قاله الشعراء في تقريظ بعض تلك المدارس نذكر قول البوصيري في مدرسة شيدها السلطان المنصور قلاوون سنة 684 هجرية([4]) :

**ومدرسةٌ ود الخَورنَقُ أنه     لديها حظِير ، والسدِير غَدِير**
**مدِينَةُ عِلْمٍ والمدارس حولها     قُرى ، أو نُجوم بدرهن منِير**
**تَبدتْ فَأخْفَى الظاهِريةَ نُورها     وليس بِظُاهِرٍ للنجومِ ظُهور**
**بِناء كأن النحلَ هنْدس شَكْله     ولانَتْ لَه كالشمع منه صخُور**

وقول ابن العطار في مدرسة أنشأها الظاهر برقوق سنة 786 هجرية([5]):

**قَد أنْشَأ الظاهِر السلطان مدرسةً     فَاقَتْ علَى إرم مع سرعةِ العمل**
**يكْفِي الخَلِيلِي أن جاءتْ لِخِدمتِهِ     شُم الجبال لهَا تأْتِي على عجل**

وكما ألحقوا بتلك المدارس المكتبات الضخمة ، كذلك دشنوا المكتبات العامة والخاصة، وخزائن الكتب في شتى مدن مصر والشام ، نذكر منها مكتبة قلعة الجبل ، وخزانة جامع الحاكم بأمر الله ، وخزانة جامع المؤيد ..([6]) .

---

([1]) للاستزادة راجع : محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي 106/1-108 .

([2]) عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبعة دار التراث ، بيروت 1968م ، ص 70 .

([3]) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب المصرية 1913 ، 367/3 .

([4]) البوصيري شاهد على العصر المملوكي 65 .

([5]) محمود الربداوي : ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً ، 35 .

([6]) وقد احتوت بعض هذه المكتبات أكثر من مئة ألف كتاب . للاستزادة راجع : الأدب في العصر المملوكي 108/1 وما بعدها .

وكانت الكتاتيب المنتشرة في النجوع والقرى والمدن تُعِد النشء للالتحاق بتلك المدارس والمراكز التعليمية ، تعلمهم القراءة والكتابة ، وتزودهم ببعض المعارف الأولية ، وتحفظهم القرآن الكريم(1).

كذلك اعتنوا بالطلاب ، ووفروا لهم سكناً قريباً من المدارس والمراكز التعليمية ، ووفروا لهم الطعام والكساء ، وأوقفوا الأراضي الزراعية والعقارات للإنفاق عليهم وعلى مراكز التعليم ومرافقها المتنوعة(2) .

وهكذا فقد تهيأت الأسباب لدولة المماليك في مصر والشام لكي تضحي قبلة العرب والمسلمين الثقافية ، وملاذهم الآمن ، بعد استيلاء الفرنجة على الأندلس والمغول على بغداد ، وتدمير المكتبات وإتلاف معظم محتوياتها من كتب وموسوعات ، كما تهيأت أسباب ازدهار حركة التأليف والإبداع في جميع المجالات العلمية والأدبية ، ليباهي العصر المملوكي جميع عصور العربية بتراثه الموسوعي في جميع فروع المعرفة(3) .

وجاء **الحكم العثماني** فدخلت باقي الأقطار العربية تحت عباءة العثمانيين ، وأبقى السلاطين العثمانيون الحكام المماليك على حالهم في حكم مدن الشام ومصر ، كما أبقوا معظم حكام الدول العربية – التي لم تكن تحت نفوذ المماليك - في أماكنهم ، وعينوا فوقهم حكاماً عثمانيين يمثلونهم في حكم هذه الدول.

وكان السلاطين في القسطنطينية – العاصمة السياسية للعثمانيين – يديرون الشئون السياسية العامة للبلاد العربية ، وكان الحكام المماليك وحكام الدول الأخرى هم الحكام الحقيقيون لبلادهم ، وكان للباشاوات السلطة الاسمية فقط ، لذلك نعمت جميع هذه البلاد بقدر كبير من الاستقلال الفكري والثقافي ، وفاقت سلطة العلماء ورجال الدين سلطة الباشا أحياناً(4) .

ولم يمنع تربع اللغة التركية على عرش الدولة العثمانية في القسطنطينية سيادة اللغة العربية في بلادها ، فهي اللغة الرسمية في جميع الدول العربية ، الأمر الذي يبرر قولنا كانت الحياة الفكرية والثقافية في الوطن العربي زمن العثمانيين امتداداً طبيعياً للعصر المملوكي وعصور العربية التي سبقته .

---

(1) راجع : عبد الفتاح سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص340 .

(2) المقريزي : الخطط 213/4 .

(3) حسن المحاضرة 102/2 .

(4) انظر : المحبي : خلاصة الأثر 110/2 – 111 .

وبالرغم مما ذكره المؤرخون عن انتشار اللغتين الفارسية والتركية في العصر العثماني ، وجهل السلاطين والحكام العثمانيين باللغة العربية ، فإن الكثير من الأتراك والفرس تعلموا العربية ، لأنها لغة الدين والثقافة الإسلامية ، وقد أشار المحبي في كتابه خلاصة الأثر إلى العديد منهم ، فمثلاً ذكر قاضي العساكر محمد بن أحمد بن مصطفى بن خليل الملقب "طاشكبري زاده" ، وذكر مكانة والده العلمية فقال في ترجمته : "فرد الدهر المجمع على فضله وبراعته ، وكان في العلم طوداً شامخاً ، لم ير نظيره في طلاقة العبارة والتضلع من العربية ، قال النجم الغزي في ترجمته لم أر رومياً أفصح منه باللسان العربي ... أخذ عن والده العالم المشهور صاحب الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، وعن شيخ الإسلام أبي السعود العمادي ، ودرس بمدارس قسطنطينية ، ثم صار قاضياً بحلب ، ونقل منها إلى دمشق ، فدخلها في أوائل المحرم سنة خمس بعد الألف ، وأقبل على أهلها ، وعاملهم بالإكرام التام حتى سحر عقول علمائها"(1) .

ومن العلماء الكثيرين الذين ترجم لهم المحبي نذكر أيضاً عبد الرحمن بن حسام الدين المعروف بحسام زاده الرومي ، الذي يقول عنه : "مفتي الدولة العثمانية ، وواحد الدهر الذي باهت بفضله الأيام ، وتاهت بمعارفه الأزمان ، وكان عالماً متبحراً ، كثير الإحاطة بمواد التفسير والعربية ، جم الفائدة .."(2) .

ليس ذلك فحسب بل وجدنا العديد من السلاطين والحكام يتقنون العربية ، ويقرضون الشعر ، من ذلك قول المحبي في ترجمته للسلطان أحمد بن محمد بن مراد(3) : "كان سلطاناً عظيم القدر ، جميل الذكر ، محباً للعلماء وآل البيت ، متمسكاً بالسنة النبوية ، حسن الاعتقاد، معاشراً لأرباب الفضائل ، سمح الكف جواداً ، لا تزال إحساناته للفقراء واصلة ، وعطاياه لأرباب ذوي الاستحقاق مترادفة ، وكان مائلاً إلى الأدب والمحاضرات ، وله شعر بالتركية .. ومما يروى له من الشعر العربي قوله ، وأجاد :

**ظبي يصولُ ولا اتصالَ إليه     جرح الفُؤْاد بِصارمي لحظيه**
**ما قَام معتَدِلاً وهز قَوامه     إلا تَهتكَتْ الستُور عليه**

---

(1) خلاصة الأثر 356/3 .

(2) السابق 351/2 – 352 .

(3) هو السلطان أحمد بن محمد بن مراد ، كان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر ، محباً للعلماء وآل البيت ، متمسكاً بالسنة النبوية .. هذا ولد سنة 999 وتوفي سنة 1026 هجرية . راجع ترجمته في : خلاصة الأثر 284/1 – 292 .

**يسقِي المدامةَ مِن سلافَةِ رِيقِهِ     ويخُصنَا بِالْغُنْجِ مِن جفْنَيه**
**عينَاه نَرجِسنَا ، وآس عِذَارِهِ     ريحانُنَا ، والورد مِن خَديه"(1)**

كذلك السلطان عبد الحميد الأول بن السلطان أحمد خان الذي اشتهر بقصيدته النبوية التي نُقشت على الحجرة النبوية الشريفة سنة 1191 هجرية ، ومنها قوله(2) :

**يا سيدي يا رسولَ اللهِ خُذْ بِيدِي     ما لِي سِواك ولا أَلْوي على أَحدِ**
**فَأَنْتَ نُور الهدى فِي كُل كَائِنَةٍ     وَأَنْتَ سِر الندى يا خَير معتَمدِ**
**وَأَنْتَ حقّاً غِياثُ الخَلْق أَجمعِهم     وَأَنْتَ هادي الورى للهِ ذي السددِ**
**يا من يقُوم مقَام الحمدِ منْفَرِداً     لِلْواحدِ الفَردِ لم يولد ولم يلِدِ**

وكما تعلم الفرس والأتراك اللغة العربية ، وأفادوا من العلوم والمعارف العربية والإسلامية ، كذلك أطل العديد من العلماء والأدباء على الثقافتين الفارسية والتركية ، حيث أضحت إجادة اللغتين إضافة إلى العربية شرطاً من شروط الوصول إلى المناصب الرفيعة في الدولة ، وقد أشار المحبي في تراجمه إلى الكثير من العلماء والأدباء الذين أجادوا اللغتين ، وأثروا من ثقافة اللغتين ، كابن النقيب(3) ، وبدر الدين البوريني الذي تعلم "اللغة الفارسية حتى صار يتكلم بها كأنه أعجمي" ، "ثم تعلم في آخر حاله التركية ، وكان في الفارسية أبرع ، ونظم ونثر" ، وفي إتقانه للغة الفارسية قال(4) :

**تَعلّمتُ لَفْظَ الأَعجمِي وإننِي     مِن العربِ العرباءِ لا أَتَكَتم**
**وما كان قَصدِي غَير صون حدِيثِكُم     إِذا صِرتُ مِن شَوقِي بِهِ أَتَرنم**
**وإن كُنْتُ بين المعجِمين فَمعرب     وإن كُنْتُ بين المعربِين فَمعجِم**
**فَأغْدوا بِأَشْواقِي إِليكُم مترَجِماً     وسِركم في خَاطِرِي ليس يعلَم**

---

(1) خلاصة الأثر 284/1 – 285 .

(2) انظر القصيدة كاملة في : عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي - العصر العثماني ، ص 38 – 39 .

(3) هو عبد الرحمن بن محمد بن كمال الدين محمد الحسيني ، أديب دمشقي ، له كتاب بعنوان "الحدائق والفرق" ، وله ديوان شعر مطبوع ، ولد سنة 1048 هـ ، وتوفي سنة 1081 هجرية . راجع ترجمته في: خلاصة الأثر 2/ 390 – 404 .

(4) خلاصة الأثر 52/2 .

وقد أطل العرب من خلال معرفتهم باللغة الفارسية على ثقافة آسيا الوسطى وتراثها الفكري ، كما انفتح الفرس والأتراك على الثقافة العربية الإسلامية ، ونهلوا من ينابيعها ، وقد رأينا الألفاظ والعبارات العربية تقتحم اللغتين ، والأتراك يكتبون بالحروف العربية([1]) .

كما بث تنوع البيئات الثقافية في الممالك العثمانية دماء جديدة في الحياة الأدبية والفكرية ، وأوجد جيلاً من الأدباء والعلماء من أبناء القوميات غير العربية ، واستمر تدفق حركة التأليف والإبداع ، وعجت المكتبة العربية الإسلامية بمئات الكتب والموسوعات([2]) .

**المعطى الدلالي لفن المديح في العصرين :**

المديح هو حسن الثناء ، ووصف الناس بالأخلاق الحميدة ، والإشادة بفضائلهم وأعمالهم المجيدة ، وقد عرف الشاعر العربي منذ جاهليته هذا الفن ، وعبر في شعره عما أعجبه من صفات بعض الناس وأعمالهم ، وإذا كان الغالب في شعر ذلك العصر المدح عن قناعة باستحقاق الممدوح الثناء ، وكان الشعر نابعاً من قرارة نفس الشاعر ، يمدح الرجل بما فيه من صفات ، لا يتزلف لكي يتكسب بشعره أو ينال العطايا ، فإن المديح المبني على الرياء والتزلف للممدوح بما ليس فيه من صفات كان موجوداً بقدر أقل([3]) .

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الرياء والكذب ، وحث على التصدي للمتزلفين من الشعراء في قوله : "إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب"([4]) ، وقال صلى الله عليه وسلم في توضيح موقف الإسلام من الشعر : "إنما الشعر كلام مؤلَّفٌ فما وافقَ الحق منه فهو حسن ، وما لم يوافِق الحق منه فلا خير فيه"([5]) .

ومنذ العصر الأموي انتشرت ظاهرة التكسب بالشعر ، ورفع الشعراء قدر الوضيع ، وجعلوا الجبان شجاعاً ، والبخيل كريماً ، وذلك مقابل ضريبة يدفعها الممدوح للشاعر وإلاّ انقلب عليه وهجاه بما هو فيه من صفات وأكثر .

---

([1]) انظر : تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني 40 .

([2]) تكفي مراجعة كتاب المحبي "خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر" ، أو كتاب شهاب الدين الخفاجي "ريحانة الألبا وزهرة الحيا الدنيا" ، لتخيل حجم حركة التأليف ، وعدد جيش الأدباء والعلماء في ذلك العصر .

([3]) راجع : درويش الجندي : ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده ، طبعة دار نهضة مصر 1969م ، ص 43 – 64.

([4]) على بن أبي بكر الهيثمي : مجمع الزوائد ، طبعة دار الريان للتراث ، القاهرة 1407 هـ ، 117/8 .

([5]) أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد قرقزان ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة ، بيروت 1988م ، 85/1 .

وأظن أن الشعراء قالوا في المديح أكثر مما قالوا في باقي فنون الشعر العربي ، وقد سار شعر المديح الصادق في ظل شعر التكسب حتى جاء العصر المملوكي ، فاشتكى الشعراء من كساد سوق الشعر ، لأنه لم يعد حرفة يرتَزقُ منها ، من ذلك قول أبي الحسين الجزار(1) :

لاَ تَلُمنِي يا سيدِي شَرفَ الديـ    ـن علَى أَن رأيتَنِي قَصابا
كَيفَ لا أَعشَقُ الجِزارةَ ما عِشْـ    ـتُ حياتِي وأَرفُض الآدابا
وبِها صارتْ الكِلاب تَرجِيـ    ـنِي وبالشعر كُنْتُ أَرجو الكِلابا

وكذلك ما يشتمل عليه قول البوصيري(2) :

لاَ تَكِلْنِي إِلى سِواك فَأَخْيا    ر زمانِي لا يمنَحون خِياره
ووجوه القُصادِ فِيهِ حدِيد    وقُلُوب الأجوادِ فِيهِ حِجاره

وقريب من هذا المعنى قول عفيف الدين علي بن عدلان(3) :

لا تَعجبن إِذا ما فَاتَك المطْلب    وعودِ النفْس أَن تَشْقَى وأن تَتْعب
إِن دام ذَا الفَقر في الدنيا فَلاَ تَعجب    مات الكِرام وما فِيهم فَتى أَعقَب

وقول ابن نباته المصري(4) :

لا عار فِي أَدبِي إِن لم ينَلْ رتَباً    وإنما العار فِي دهري وفِي بلَدِي

---

(1) هو يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن علي ، جمال الدين أبو الحسين الجزار ، ولد في بالفسطاط سنة 603 هجرية ، وقد عمل في الجزارة مهنة والده بعد أن عجز عن التكسب بشعره ، توفي سنة 679 هجرية . انظر ترجمته في : محمد بن أحمد الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس طبعة دار الثقافة ، بيروت 1973م ، 277/4 – 293 .

(2) هو أبو عبد الله ، شرف الدين ، محمد بن سعيد بن حماد ، ولد في قرية دلاص ببني سويف بمصر سنة 608 هـ ، وتوفي في القاهرة سنة 695 هجرية . راجع ترجمته في كتابنا : البوصيري شاهد على العصر المملوكي ، ص 7 وما بعدها .

(3) هو عفيف الدين أبو الحسن علي بن عدلان بن حماد بن علي الموصلي النحوي المترجم ، مات بمصر سنة 666 هجرية . النجوم الزاهرة 197/7 .

(4) هو الشاعر والناثر المشهور أبو بكر ، جمال الدين ، محمد بن شمس الدين محمد بن شرف الدين محمد الجذامي الفارقي ، يعود أصله إلى قبيلة جذام العربية ، أقام أجداده في الشام ، وقد اشتهر منهم عبد الرحيم بن نباتة ، الخطيب الذي ذاع صيته في عصر سيف الدولة الحمداني . ولد في القاهرة سنة 686 وتوفي فيها سنة 768 هجرية .

**هذا كلامِي وذَا حظي فَيا عجباً    مِني لِثَروةِ لفْظٍ وافْتِقارِ يدِ**

أضحى الشعر في العصر المملوكي تعبيراً صادقاً عن أحاسيس الشاعر تجاه ممدوحه، وراجت سوق المديح الذي يمجد البطولة والجهاد في سبيل الله ، وتغنى الشعراء بانتصارات قادة المسلمين على الصليبيين والتتار ، وخلدوا صفاتهم الحميدة وأعمالهم الخيرة ، من ذلك ابتهاج المسلمين بانتصار سيف الدين قطز على التتار في عين جالوت سنة 658 هجرية ، كما نرى في قول شرف الدين الأنصاري(1) :

**رعتَ العِدا فَضمِنْتَ تَل عروشِها    ولقَيتَها فَأَخَذْتَ تَل جيوشِها**
**فُقْتَ الملوك بِبذْل ما تَحويه إِذْ    خَتَمتْ خَزائِنَها على منْقُوشِها**
**فَطَويتَ عن مِصر فَسِيح مراحِلٍ    ما بين بِركتها وبين عريشها**
**حتى حفِظْتَ على العِبادِ بِلادها    مِن رومِها الأَقْصى إِلى أحبوشِها**
**فَرشَتْ حماه لِوطءِ نَعلِك خَدها    فَوطِئْتَ عين الشمس مِن مفْروشِها**

وكذلك قول شهاب الدين محمود الحلبي(2) في مدح السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس والإشادة بانتصاره على التتار والروم الذين أعادوا تجمعهم عند نهر جيحان(3) :

**سِر حيثُ شِئْتَ لك المهيمِن جار    وأحكُم فَطَوع مرادِك الأَقْدار**
**لم يبقَ للدين الذي أَظْهرتَه    يا ركْنَه عِنْد الأعادِي ثَار**
**لما تَراقَصتْ الرؤوس وحركَتْ    مِن مطْربات قِسِيك الأوتَار**
**خُضتَ الفُراتَ بِسابِحٍ أَقْصى منَى    هوج الصبا مِن نَعلِهِ آثَار**
**حملَتْك أَمواج الفُراتِ ومن رأى    بحراً سِواك تَقِله الأنْهار**
**وتَقَطعتْ فِرقاً ولم يك طَودها    إِذْ ذَاك إِلاّ جيشُك الجرار**

---

(1) قال القصيدة بحماة حينما وصلها قطز منتصراً . تاريخ ابن الوردي 201/2 . والشاعر هو شيخ شيوخ حماة ، شرف الدين ، عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن بن محمد بن منصور بن خلف الأنصاري الدمشقي ، المعروف بابن الرفا ، ولد سنة 586 ، وتوفي ودفن بحماة سنة 662 هجرية . راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة 231/7 . وفوات الوفيات 354/2 - 363.

(2) هو شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي الدمشقي ، ولد سنة 644 هـ ، تولى ديوان الإنشاء بعد موت محي الدين بن عبد الظاهر ، وتوفي سنة 725 هجرية .

(3) النجوم الزاهرة 143/7 - 144 . وانظر أيضاً : محمد بن شاكر الكتبي : فوات الوفيات 240/1 .

رشتْ دماؤُهم الصعِيد فلَم يطِر     مِنْهم علَى الجيش السعِيدِ غُبار
شَكرتْ مساعِيك المعاقِلُ والورى     والترب والآساد والأطْيار
هذِي منَعتَ وهؤلاءِ حميتَهم     وسقَيتَ تِلْك وعم ذَا الإِيسار
فَلأملأن الدهر فِيك مدائِحاً     تَبقَى بقيتَ وتَذهب الأعصار

لقد التف الشعراء حول أبطال المسلمين الذين خلصوا البلاد والعباد من شرور أعداء الدين ، التتار والصليبيين ، وكان الشاعر شهاب الدين محمود أحد الذين لهجوا بذكر انتصارات المماليك في الشام ، يخلد فتح السلطان المنصور قلاوون الألفي حصن المرقب وقضى على من فيه من الصليبيين سنة أربع وثمانين وستمائة هجرية ، ويمتدح قوة عريكة هذا السلطان ، وقوة إيمانه التي تجلت في ادخار الله عز وجلّ شرف فتح هذا الحصن  له دون غيره من السلاطين والأبطال الأقوياء ، من ذلك قوله(1) :

اللهُ أكبر هذا النصر والظفَر     هذَا هو الفَتْح لا ما تَزعم السير
هذَا الذِي كانَتْ الآمالُ إِن طَمحتْ     إِلى الكواكِبِ تَرجوه وتَنْتَظِر
فَانْهض وسِر وامِلك الدنْيا فَقَد نَحلَتْ     شَوقاً منَابِرها وارتَاحتْ السرر
كم رام قَبلَك هذا الحِصن مِن ملِكٍ     فَطَالَ عنْه وما فِي باعِهِ قِصر
وكيفَ تَمنَحه الأيام مملكَةً     كانَتْ لِدولتِك الغَراءِ تُدخَر
وكيفَ يسمو إِليها من تأخر عن     إِسعادِه منْجِداك القَدر والقَدر

وفي مدح السلطان قلاوون – أيضاً – بعد فتح طرابلس سنة تسع وثمانين وستمائة للهجرة يتوجه الشهاب محمود إلى الله عز وجل بالشكر على نعمة النصر والتأييد التي خص السلطان بها ، ويتضرع إليه أن يديم عليه النصر والتأييد(2) :

علَينَا لِمن أولاك نِعمتَه الشكْر     لأنك للإِسلامِ يا سيفَه ذُخْر
ومِنا لك الإِخْلاص في صالِحِ الدعا     إِلى من له فِي أمر نُصرتِك الأمر
ولِلهِ في إِعلاءِ ملْكِك فِي الورى     مراد وفِي التأْيِيدِ يوم الوغَى سِر
ألا هكَذا يا وارثَ الملْكِ فَلْيكُن     جِهاد العِدا لا ما تَوالَى بِهِ الدهر

---

(1) النجوم الزاهرة 269/7 – 270 .

(2) السابق 275/7 .

واختصاراً لا نكاد نجد سلطاناً أو أميراً أو قائداً من قادة المماليك الذين تصدوا للتتار والصليبيين إلا حاز إعجاب الشعراء ، وحظي بما خلّد ذكره من المدح الصادق ، ليس ذلك فحسب بل امتدح الشعراء العديد من رجال الدولة المملوكية في مصر والشام لحسن خلقهم وتقواهم ، وأشادوا بعدلهم ، وحسن إدارتهم ، وسهرهم على راحة مواطنيهم ، من ذلك ما نراه في قول البوصيري(1) :

**فَطَهر وجه الأرض مِن كُلِّ فَاسِدٍ      وما خِلْتُه مِن قَبلِهِ يتَطَهر**
**ومهده للسالِكين مِن الأذَى      فَليس بِهِ الأعمى إِذا سار يعثُر**
**فَشَرقْ وغَرب في البِلادِ فَكَم له      بِها عابِر يثْنِي علَيهِ ويعبر**
**وما كُل والٍ مِثْله فِيهِ يقْظَةٌ      ولاَ قَلْبه بِاللهِ قَلْب منَور**
**أَنَامِ الرعايا في أَمانٍ وطَرفُه      لِما فِيهِ إِصلاَح الرعِيةِ يسهر**
**فَلاَ الخَوفُ مِن خَوفٍ أَلَم بِأَرضِهِ      ولاَ الشر فِيها بِالخَواطِرِ يخْطُر**

ويمدح عمر بن الوردي(2) المماليك عامة ، ويشير إلى استقرار حال البلاد في عصرهم ، حيث يصفهم بالسعد والعدل بعد أن شبههم بالملح الذي لا يستغني الناس عنه ، مبيناً أنه لا يعرف فضلهم إلا من جرب ظلم المغول ، ويدعو لهم بطول البقاء(3) :

**الترك ملح الأَرضِ في عصرِنا      والفلك الدائِر في سعدِهم**
**تعرفُ من يعرفُ مِقدارهم      من ذَاقَ جور المغْلِ(4) مِن بعدِهم**
**اللهُ لاَ يوحشَ مِن أُنْسِهم      فَجورهم أَهون مِن فَقْدِهم**

كذلك حاز العديد من رجال الدين والعلماء والأدباء إعجاب الشعراء فامتدحوهم ، وفي قصائد طوال عددوا مناقبهم وصفاتهم ، وإن كان هذا الإعجاب لا يخلو أحياناً من رجاء أو طمع

---

(1) ديوان البوصيري ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، الطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة 1973م ، ص 160 .

(2) هو زين الدين عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس الوردي ، المعروف بابن الوردي المتوفى سنة 749 هجرية ، صاحب كتاب تاريخ ابن الوردي . انظر ترجمته في : محمد بن شاكر الكتبي: فوات الوفيات 3/ 157 – 160 .

(3) ديوان ابن الوردي ، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية 1300هـ ، ص 266 .

(4) المغل : المغول .

في عطاء ، فإنه يشتمل غالباً على الأحاسيس الصادقة ، والحب الذي لا ينقلب كرهاً وهجاء إذا عز العطاء ، كما هو معروف عن بعض شعراء التكسب في العصور السابقة ، ومعاني هذا المدح متنوعة ، ونماذجه كثيرة جداً ، نذكر منها قول الشاعر ابن مليك الحموي([1]) في مدح قاضي القضاة شهاب الدين أبو العباس المعروف بابن فرفور([2]):

**ولله سِر في علاك فما عسى      يقُولُ حسود أو عدو يجاهِر**
**وأَضحتْ دِمشْقُ الشامِ بِالحسن جنةً      علَيها جمالٌ مِنْك باهٍ وباهِر**
**وحاكتْ لها أَيدي السحاب مطارفاً      موشعةً قَدْ دبجتْها الأزاهِر**
**وروض الهنا بِالرق نَقر طَيره      وغَنى علَى العِيدان والريح زامِر**
**وجامِعها بالحسن أَصبح مفْرداً      وقَد أعربَتْ بِالوصفِ عنْه الضمائِر**
**وصار علَيهِ مِن شِعارك رونَقٌ      وفِيهِ لقَد أَضحتْ تُقَام الشعائِر**
**ومنبره لما بِهِ قُمتَ خاطِباً      تَمنتْ بِأَن تَسعى إِلَيهِ المنابِر**
**فَهذا هو البحر الذي عن نَوالِهِ      موارده قَد أَعربَتْ والمصادِر**
**أَخُو الجودِ مِن كَفَيهِ يستَمطَر الندى      وما هو إِلا الغَيثُ بِالجودِ ماطِر**

لقد راعى الشاعر الصفات التي تناسب مقام الممدوح ومكانته الاجتماعية والدينية ، فهو القاضي الذي تزهو به دمشق ، والخطيب التقي المفوه الذي يباهي به مسجده ، وتتوق إليه المنابر ، ثم لا ينسى الشاعر التنويه عن كرم ممدوحه وسخائه .

كذلك ترك شعراء العصر المملوكي كما هائلاً من شعر الثناء على العلماء والأدباء ، ومدحوهم بغزارة علمهم وبراعة فنهم ، وما استحبوا من صفاتهم ، وفي هذا المقام نذكر بيتين مما

---

[1] هو علاء الدين ، علي بن محمد بن علي بن عبد الله المعروف بابن مليك الحموي ، ولد بحماة سنة 840 وتوفي ودفن بدمشق سنة 917 هجرية . انظر ترجمته في : نجم الدين محمد بن محمد الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، الطبعة الثانية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت 1979م ، 1 /261 .

[2] ديوان ابن مليك الحموي ، المطبعة العلمية ، بيروت 1312هـ ، ص 62 .

قيل في مدح أبي العباس أحمد بن خلكان(1) من شعر عمر بن إسماعيل الفارقي مبتهجاً بعودة ابن خلكان إلى قضاء دمشق ، قال(2) :

**أَنْتَ فِي الشامِ مِثْلُ يوسف فِي مِصـ ـرٍ وعِنْدِي أَن الكِرام جِنَاس**
**ولِكُل سبع شِداد وبعد السبـ ـعِ عام فِيهِ يغَاثُ الناس**

وقد شاركت المرأة في فن المديح كما شاركت في غيره من فنون الشعر ، وفي هذا المقام نورد بعض ما قالته عائشة الباعونية(3) في مدح شيخ الأدباء السيد الشريف عبد الرحيم العباسي القاهري(4) :

**إِمام حوى مِن كُل عِلْمٍ لُبابه فَحج لِعالِي بابِهِ كُل ذِي قَدرِ**
**وأَصبح فِي بحرِ الحقَائِق غَائِصاً ومستَخْرِجاً ما شَاء مِن ذَلِك البحرِ**
**تَلُوذُ بِهِ الأَعيان فِيما يهِمهم فَيلفون عطفَ البر أَو فَائِض البِر**
**كَرِيم تُجارِي السحب راحتُه ولاَ يرِيد بِما يجزِي سوى الفَوز بِالأَجرِ**
**يمن ولا من يشُوب عطَاءه ويمنَح مِن لَفْظٍ سبى العقْلَ بِالسحرِ**
**عرائِس فِكْرٍ أَرخَص الدر لَفْظُها وأَنْشَتْ معانِيها لَنَا دهشَةَ الفِكْرِ**

---

(1) هو قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس ، وقال صاحب الكوكب الثابت هو أبو بكر ، أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان ، ولد بإربل سنة 608 هجرية في بيت معروف بالفقه والمناصب الدينية ، كان إماماً عالماً فقيهاً أديباً شاعراً، معدوم النظير في علوم شتى ، وهو صاحب التاريخ المشهور "وفيات الأعيان" ، تولى قضاء دمشق مرتين ، الأولى سنة 660 تقريباً، ثم عزل وذهب إلى القاهرة مدة ، وناب فيها في القضاء عن بدر الدين السنجاري ، وأفتى بها ودرس ، ثم أُعيد إلى قضاء الشام وسر الناس بعودته .. وتوفي في دمشق سنة 681 هجرية . للاستزادة راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة 299/7 - 301 . والسلوى الأندلسي ، عبد القادر بن عبد الرحمن : الكوكب الثابت في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 325 تاريخ تيمور ص 316 – 319 .

(2) النجوم الزاهرة 300/7 .

(3) هي عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر بنت الباعوني ، أديبة ، عالمة ، ناسكة ، انتقلت من دمشق إلى القاهرة طلباً للعلم ، وأجيزت للإفتاء والتدريس ، لها العديد من المؤلفات ، منها كتاب الفتح الحنفي ، وكتاب الملامح الشريفة والآثار المنيفة .. توفيت في حلب سنة 922 هجرية . أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مطبعة القدس ، القاهرة 1351هـ ، 111/8 .

(4) الكواكب السائرة 304/1 .

إنها الصفات التقليدية التي توارثها الشعراء المداحون في الثناء على ممدوحيهم ، أما الخصوصية فتكمن في اختيار ما يناسب الممدوح من صفات تتصل بعمله أو تخصصه ، فالعالم أو الأديب يناسبه المدح برجاحة العقل ، وسعة العلم ، وحسن المنطق ، وبراعة المعنى، وجمال اللفظ ، إضافة إلى الصفات العامة كالكرم ، والنخوة ، والتقوى ..

بقي أن نشير إلى استمرار تدفق شعر التكسب في هذا العصر بالرغم مما رأيناه سابقاً من شكوى الشعراء من كساد سوق هذا اللون من المديح ، وقد وصل بعض الشعراء إلى حد إراقة ماء الوجه وهو يطلب العطاء من ممدوحه ، من ذلك – مثلاً – قول جمال الدين محمد بن نباته(1) في مدح صاحب حماة الملك المؤيد أبي الفداء(2) :

**يا إمام الورى ، مضى نصفُ عامٍ ... مِن وصولي ولم يصِلْ لِي ربع**
**سنَةٌ إن غَفَلْتَ عني فِيها ... كسرتْني وكيفَ لا ، وهي سبع**

وقوله(3) :

**شَكَرتْ لُهاك فَما أَشُك بِأنني ... ثَقلْتُ وهي مطِيقَةٌ أَثْقَالها**
**أَغْنَيتَنِي عن كُل ذِي مالٍ فَلَم ... أَفْتَح يداً لِسِوى نَداك ولا لها**
**وكَفَيتَنِي حتى فَقَوتُ معاشِراً ... كَثُر الندى فَاستَكثَرتْ أَطْفَالها**
**أَيام ما لِي غَير قَصدِك حِيلةٌ ... تُنْجِي وتُنْجِع في الورى نُطالها(4)**

---

(1) هو محمد بن محمد بن محمد بن أبي الحسن بن صالح ابن الخطيب عبد الرحيم ابن نباته ، ولقبه جمال الدين ، ولد بمصر سنة 686 هجرية ، تعلم على أبيه وشيوخ مصر ورجال العلم فيها ، حاول الارتزاق بشعره فمدح أمراء الشام الأيوبيين وأثرياءها ، ثم عمل في ديوان التوقيع بدمشق ثم عاد لمصر بعد غيبة استمرت نصف قرن تقريباً ، واشتغل في الديوان مع المماليك .. توفي بالقاهرة سنة 768 هجرية . راجع ترجمته في : عمر موسى باشا : ابن نباته المصري أمير شعراء المشرق ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف، مصر 1992م ، ص 115 - 270 .

(2) عمر موسى باشا : ابن نباته المصري أمير شعراء المشرق ، ص 36 .

(3) السابق 155 . وانظر في مدح التكسب وطلب العطاء : - شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق محمد حور ، منشورات المجمع الثقافي ، أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة 2003م ، 381/16 – 382. – شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت 1992م ، 31/1 ، 38 ، 368 .

(4) نطال : جمع ناطل ، ونطل الخمر عصرها .

لاَ زِلْتَ مقْصودَ الحِمى بِقصائِدٍ     أَصبحتَ عِصمةَ أَمرِها وثِمالَها(1)
لولاكَ لم يخْطُر بِبالي نَظْمها     لا والذي يلْقاك أَنْعم بالها
سأَلتْ رواياتِ الندى فَتأَخرتْ     عنْها الورى وأَجزتَ أَنْتَ سؤالَها

نلاحظ أن ابن نباته لم يحفظ ماء وجهه ، وكان بوسعه استخدام لغة الشعر الموحية التي برع في استخدامها ، ولكن هذا حال معظم الشعراء في هذا اللون من المديح ، لم يحسنوا استخدام أدواتهم الفنية في التعبير عن حاجاتهم ، فحشدوا الصفات واحدة تلو أخرى دون ترابط.

أما السراج الوراق فقد كان أبرع من ابن نباتة حينما مزج طلب العطاء بلطيف المعاني وخفة الظل في قوله(2) :

كَم قَطَع الجود مِن لِسانٍ     قلَّد مِن نَظْمِهِ النحورا
فَها أَنا شَاعِر سِراج     فَاقْطَع لِساني أَزِدك نُورا

ومن طريف ما قاله شعراء التكسب في هذا العصر قول علاء الدين بن مليك الحموي(3) :

مدحتُكُم طَمعاً فِيما أُؤَمِّله     فلَم أَنَلْ غَير حمل الإِثْمِ والنصبِ
إِن لَم تَكُن صِلَةٌ مِنْكُم لِذِي أَدبٍ     فَأُجرةُ الخَط أَو كَفارةُ الكَذِبِ

وكذاك قوله(4) :

لاَ تَعجبوا مِن صدِيقٍ كُنْتُ أَمدحه     وقَد هجانِي وما فِي ذَاك مِن عجبٍ
بلْ اعجبوا مِن ذَكَاءٍ فِيهِ كَيفَ درى     أَني كَذَبتُ فَجازانِي على الكَذِبِ

---

(1) ثمال القوم : غياثهم الذي يقوم بأمرهم .

(2) ريحانة الألبا 430/1 . والشاعر هو سراج الدين عمر بن محمد بن حسن ولد بمصر سنة 615 هجرية ، وقد اشتهر بالظرف والفكاهة ، توفي سنة 695هجرية . راجع ترجمته في : النجوم الزاهرة 69/8 .

(3) هو علي بن محمد بن علي بن عبد الله ، علاء الدين بن مليك الحموي ، ولد بحماة سنة 840هـ ، درس الأدب والنحو والعروض ، واشتغل بالعلم والأدب ، وبرع في الشعر .. توفي سنة 917 هجرية . ريحانة الألبا 1/ 188 – 190 .

(4) السابق 190/1 .

ومن بديع معاني التعفف عن طلب العطاء من الممدوح قول صفي الدين الحِلي(1):

**ولقَد أَسِير على الضلال ولم أَقُلْ : أَين الطريقُ ، وإن كَرهتُ ضلالِي**
**وأَعافُ تَسآلَ الدلِيل تَرفعاً عن أَن يفُوه فَمِي بِلَفْظِ سؤْال**

أما في **العصر العثماني** فلا تكاد تختلف بواعث فن المديح عما كانت عليه في العصر المملوكي وما سبق من عصور العربية ، ففتوحات العثمانيين التي أوقفت الزحف الصليبي على المشرق الإسلامي ، ووصلت بالإسلام إلى عمق العالم الصليبي ، حازت إعجاب الشعراء وجعلتهم يلهجون بنشر بطولاتهم ، وتمجيد صفاتهم(2) ، وكذلك حظيت أعمال الأمراء والوزراء وبعض رجال الدولة في الأمصار العربية إعجاب الشعراء ، فعددوا مناقبهم، وامتدحوا صفاتهم ، وخلدوا أعمالهم . وقد ظفر رجال الدين والعلماء والأدباء بنصيب وافر من شعر المديح في هذا العصر ..

لقد تغنى الشعراء ببطولات السلاطين العثمانيين ، وأثنوا عليهم وقرضوا صفاتهم ، فمما قيل في مدح السلطان مراد بن سليم عندما فتح مدينة تبريز عام سنة 993 هجرية نشير إلى قصيدة ابن القاف الرومي(3) التي منها قوله(4) :

**فَيا مِليكاً له كُل الملوكِ غَدتْ تَدِين طَوعاً وتأتِي وهي تَعتَذِر**
**سِر واملك الأرض والدنْيا فَأَنْتَ إذاً إِسكَنْدر العصر قَد وافَى بِهِ الخَضِر**
**فَيا لَها نِعمةٌ آثَار مفْخَرها كَانَتْ لِدولَتِهِ الغَراءِ تُدخَر**
**ظِل الإِلهِ مراد اللهِ قَد شَرفَتْ بِهِ المنَابِر والتيجان والسرر**
**أَجل من وطِئَ الغَبراء مِن مِلِكٍ بِأَمرِهِ سائِر الأملاكِ تأْتَمِر**

---

(1) ديوان صفي الدين الحلي 47 .

(2) كذلك مجد الشعراء اهتمام السلاطين بالمقدسات الإسلامية ، ودور العبادة والعلم ، ومن هؤلاء السلاطين "السلطان مراد" ، الذي أعاد بناء الكعبة بعد أن هدمها السيل سنة 1039 هجرية فاستحق مدح الشعراء . انظر : خلاصة الأثر 339/4 – 340 .

(3) هو فيض الله بن أحمد ، المعروف بابن القاف ، الرومي ، قاضي العسكر ، وأحد فضلاء مشاهير الروم ، ولد سنة 950 هجرية، وتولى قضاء حلب ، ثم قضاء الشام سنة 990 هجرية ، ثم عزل ورحل إلى بلاد الروم ، ثم تولى قضاء العسكر ، توفي سنة 1020 هجرية . انظر ترجمته في : خلاصة الأثر 288/3 – 292 . ونفحة الريحانة 93/3 – 99 .

(4) نفحة الريحانة 97/3 – 98 . والقصيدة في خلاصة الأثر 290/3 – 291 .

بِعزمِه ظَهر الفَتْح الذِي عجِزتْ      عنْه السلاطِين ، قَد أَفْنَتْهم العصر
ولَو فَاخَرتْه ملُوك الأرضِ قَاطِبةً      ما نَالَهم مِن معانِي فَخْرِهِ العشُر
هلْ يستَوي الشمس والمِصباح جنْح دجى      ويستَوي الجارِيان البحر والنهر
بدا لَه فِي سماءِ المجدِ نُور هدى      مِن دونِهِ النيران الشَمس والقَمر
وأَصبح الملْك محروس الجنَابِ وقَد      وافَى بِهِ المسعدان القَدر والقَدر

لقد تجلّت قناعة الشاعر بممدوحه فيما رأيناه من إصراره على تأكيد معاني القوة والمنعة، إذ أصبحت الملوك تدين له طوعاً ، وتعتذر عما بدر منها ، وجعله اسكندر العصر الذي تحدث القرآن الكريم عن صفات عزته وآية بلوغه مغرب الشمس([1]) ، ثم تحدث عن رضا الله تعالى عنه إذ ادخر له نعمة هذا الفتح ، ثم طفق يمدحه بأبهى الصفات والمناقب .

ومما مدح به السلطان محمد خان الرابع بعد افتتاح قلعة "إيوار" سنة 1074 هجرية نذكر قصيدة من القصائد التي مدحه بها الشعراء ، قال عبد اللطيف البهائي البعلي([2]) :

مَلِك علا فِي المجدِ أَعلَى رتْبةٍ      أَنِفَتْ تَكُون لَه الثريا منْزلاً
تعنُوا ملُوك الأَرضِ قَاطِبةً لَه      أَبداً وتَسعى خِيفَةً وتَذَللا
تَخْشَى سطَاه الأُسد فِي آجامِها      فَتَذُوب مِنْه تَضاؤُلاً وتَغَلْغُلا
قَسماً بِطَلْعتِهِ أَلِيةَ صادِقٍ      فِي حلْفِهِ بر اليمِين إِذَا ائْتَلَى
لم تَسمحِ الأَيام قَط بِمِثْلِهِ      مِلِك تَعمم بِالتُقَى وتَسربلا
لم يحصِ مادِحه جمِيلَ صِفَاتِهِ      كَلا ولَو أَفْنَى القَرِيض تَسلْسلا
لم يأْلُ جهداً فِي الجِهادِ ولم يزلْ      يسعى بِإِرسالِ الجيوش مكَملا
فِي نُصرةِ الدين المبِين مجاهِداً      براً وبحراً لِلْعساكِر مرسِلا
عن حومةِ الإِسلامِ ذَب عِداتِهِ      وأَباد عباد الصلِيبِ وزيلا
ما زالَ يضرع فِي الدعاءِ لِربهِ      سِراً وجهراً مجمِلاً ومفَصِلا
متَوجهاً بِخُلُوصِ قَلْب صادِقٍ      فِيما انْتَحاه تَضرعاً وتَبتلا
فَأَتَتْه بشْرى الفَتْحِ وهو ملَفع      ثَوب السعادةِ بِالجلاَلِ مسربلا

---

[1] قال تعالى : "حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً .." سورة الكهف، آية 86 .

[2] نفحة الريحانة 397/2 – 398 . وانظر أيضاً : خلاصة الأثر 354/1 .

مستيقناً بحصوله ومؤملاً     من ربه إتْمامه متوكلا
لا زالَ تأتيهِ البشَائر دائماً     أبداً وتَخْدمه المفَاخِر والعلى
وأدامه عوناً وغَوثاً لِلْورى     وحباه رب العرش عمراً أطْولا
بِسَمِيهِ خَير الأنَامِ محمدٍ     والآل والصحبِ الكِرامِ ذَوي الولا
ما لاَح نَجم فِي السماءِ لِناظِرٍ     وأضاء بدر فِي الدجى وتَهللا

أدار الشاعر معاني مدحه حول منزلة السلطان محمد خان الرابع ، وقوة بأسه ، وخشية الأعداء من بطشه ، وتفرده عبر الأزمان بالتقوى والغيرة على الإسلام ، والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى ، وأسهب في تقريض صفات تدينه وتقربه إلى الله عز وجلّ ، ثم ختم مديحه بالدعاء له أن يبقى عوناً للناس ، وأن يطيل رب العرش عمره . كما هو واضح فقد سار الشاعر في ركب شعراء المدح في العصور السابقة ، وترسم خطاهم في ترديد معاني الشجاعة ، وهيبة الجانب ، والتقوى ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، وقد أعانته قوة قريحته ، وحسن ظنه بالسلطان على الوصول إلى غايته ببراعة دون أن يقع في حبائل التكلف أو التقليد.

ومما قاله الشعراء في تخليد بطولات الجيش العثماني ، ومدح الوزراء والقادة نذكر قول الشاعر قطب الدين المكي(1) في مدح الوزير سنان باشا ، لأنه أعاد الأمن والاستقرار لليمن(2) :

لك الحمد يا مولاي في السر والجهر     على عِزةِ الإسلامِ والفَتْحِ والنصر
كَذَا فَلْيكُن فَتْح البلادِ إذَا سعتْ     له الهمم العلْيا إلى شَرفِ الذكْر
جنود رمتْ من كوكبان(2) خِيامها     وآخِرها بِالنيل مِن شَاطِئي مِصر
تَجر مِن الأبطال كُل غَضنْفَرٍ     بِصارمِهِ يسطو على مفْرق الدهر

---

(1) "هو قطب الدين ، محمد بن علاء الدين أحمد بن محمد ، النهرواني ، الهندي ، ولد سنة سبع عشرة وتسعمائة .. وكان بارعاً متفنناً ، في الفقه ، والتفسير ، وعلوم العربية ، ونظم الشعر ، وشعره في غاية الرقة . كتب "تاريخ لمكة المشرفة" ، وألف "طبقات الحنفية" ، وقد احترق في جملة كتبه .. توفي سنة تسعين وتسعمائة" . انظر ترجمته وبعض شعره في :

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي : ريحانة الألِبَا وزهرة الحياة الدنيا ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1967م ، 407/1 .

(2) هو الوزير الأعظم سنان باشا ، ولي الحكومة في مصر أيام السلطان سليم بن سليمان ، انتدبه السلطان لإعادة الاستقرار إلى اليمن ، كذلك قاد جند المسلمين في تحرير تونس من الفرنجة الصليبيين ، كذلك عينه السلطان لحرب النمسا ، توفي سنة أربع بعد الألف هجرية . السابق 411/1 .

**عساكر سلطان الزمان مليكنَا        خَلِيفَةِ هذا العصر في البر والبحرِ(1)**
**حمى حوزةَ الدين الحنِيفيَ بِالقَنا        وبِيض المواضِي والمثَقفةِ السمر**

وبعد أن وصفه وجيشه بالشجاعة ، والغيرة على الإسلام وبلاد المسلمين ، امتدح رجاحة عقله ، وبعد نظره ، وجعله في حسن تدبيره كيوسف الصديق عليه السلام ، فقال(3) :

**وزير عظِيم الشان ثاقِب رأيه        يجهز في آنٍ جيوشاً من الفِكْرِ**
**سِنَان عزيز القَدر يوسفُ عصرِهِ        ألم تَره في مِصر أَحكامه تَجري**
**وهلْ تَطْمع الأعداء في ملْكٍ تُبعٍ        وتَأخُذُه مِن آل عثْمان بِالمكْرِ**

أما الشاعر القائد شرف الدين أحمد بن يحيى(4) فقد أشاد بجيشه وقادة جنده ، ووصف قوة عريكتهم وكثرة عددهم ، ومدح شجاعتهم التي مكنته من فتح مدينة صعدة اليمنية ، وقد سلّط الأضواء على القوميات التي ينتمي إليها أفراد جيشه الإسلامي ،
من ذلك قوله(5) :

**وجحافِلٌ مثلَ الجبال تلاطمتْ        أَموجهن بِكُل أَصيدِ أَغْلَبِ**
**مِن كُل أَبلَجٍ مِن ذُؤَابةِ هاشِمٍ        وبِكُل أَروع مِن سلالةِ يعربِ**
**وأَعاجِم تُرك وروم قَادةٌ        وأَحابِشٌ مِثْلَ الأُسودِ الوثبِ**

ولما فتح العثمانيون قلعة "قندية" عاصمة جزيرة كريت عام 1080 هجرية ، ابتهج المسلمون بهذا النصر ، لأن هذه القلعة كانت شديدة التحصين ، ولأن جزيرة كريت الجزيرة كانت مركزاً متقدماً لانطلاق الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي ، ومنها كان ينطلق

---

(1) كان يطلق على السلطان العثماني لقب "سلطان البرين ، والبحرين ، وخادم الحرمين الشريفين" . راجع : تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني 13 .

(2) كوكبان : جبل قرب صنعاء .

(3) ريحانة الألبا 412/1 .

(4) هو الإمام المتوكل على الله شرف الدين بن شمس الدين بن الإمام المهدي أحمد بن يحيى ، ولد سنة 877 هجرية بحصن حضور ، وارتحل إلى صنعاء عام 883 وهناك تلقى علومه الأولى ، وقرأ أمهات كتب العربية والدراسات الإسلامية على علماء اليمن وشيوخها ، له مصنفات منها : كتاب "الأثمار" ، توفي سنة 965 هجرية ، ودفن بحصن الظفير . راجع ترجمته في : الشوكاني : البدر الطالع 194/1 – 196 .

(5) البدر الطالع 195/1 .

القراصنة للإغارة على سفن المسلمين وشواطئهم ، وقد عبر الشعراء عن غبطتهم بهذا النصر، ومدحوا العثمانيين ، وأشادوا بمناقب القائد العثماني الفاتح "الصدر الأعظم أحمد كوبرلي باشا"(1) ، من ذلك قول ابن النقيب الحسيني(2) :

**ما آلُ برمك في ذُرا بغْدادِ        يوم الفَخَار ولاَ بنُو عبادِ**
**يوماً بأَوقَع في النفُوس مفَاخِراً        مِما لكُم مِن سؤْددٍ وسدادِ**
**حليتُم جِيد الزمان بِدولةٍ        حلتْ محل الروح في الأجسادِ**
**جل المهيمِن كم أَتَاح لِذا الورى        مِنْها جمِيلَ عوارفٍ وأَيادِ**
**إِيهٍ بِعيشِك يا زمان فَلا تَنِي        أَبداً بِنَشْر محاسِن الأمجادِ**
**فَتَحوا بِقنديةٍ معاقِلَ أُرتِجتْ        قِدماً على الأُمراءِ والأجنَادِ**
**وافَى لها الصدر الرفِيع جنَابه        عِلْم الغُزاةِ ومكْمِد الحسادِ**
**وله بِدين الحق صولةُ نَاصِحٍ        دك الغُزاةُ بِها ذُرا الأطْوادِ**
**تَروي له الأيام طِيب مفَاخِرٍ        ومآثِرٍ عزتْ على الأنْدادِ**
**أَنْتُم بنِي العلْياءِ قُطْب مدارِها        يوم الفَخَار وموئِلَ القُصادِ**
**أَشْفَعتُم شَرفَ الجِهادِ بِمقْصدٍ        أَسنَى ومسعاةٍ لِخَير معادِ**

إن ابتهاج الشاعر بفتح "قندية" ، وإعجابه بالوزير أحمد كوبرلي باشا جعله يقرن مفاخر آل كوبرلي العثمانيين الأتراك بمفاخر البرامكة في بغداد ، ومفاخر بني عباد في اشبيلية ، ليس ذلك فحسب بل نراه ينحاز للعثمانيين ودولتهم ، ثم يمجد صفات الوزير وآله ، ويعدد مناقبهم ومنها نصرة الدين وإعلاء راية الجهاد .

---

(1) هو أحمد باشا بن محمد باشا الوزير الأعظم المعروف بالفاضل أحمد باشا الكوبري الأصل ، القسطنطيني المولد ، وقد عده "المحبي" أهم وزراء الدولة العثمانية ، وقال عنه : "لم يكن في الوزراء من يحفظ الدين وقانون الشريعة مثله" وذكر من فتوحه وانتصاراته أنه هزم ثوار المجر ، وفتح قلعة "قندية" التي بقيت منذ دون فتح منذ أن فتح السلطان إبراهيم بن أحمد (ت 1058 هـ) الجزيرة كلها باستثنائها ، لأنها كانت شديدة التحصين . خلاصة الأثر 352/1 – 354 .

(2) هو عبد الرحمن بن محمد بن كمال الدين الحسيني ، الدمشقي ، المعروف بابن النقيب ، لأن والده كان نقيب الأشراف في بلاد الشام ، ولد سنة 1048هـ ، تتلمذ على والده ، وغيره من علماء العصر ، ثم تعانى الإنشاء ونظم الشعر ، وأحسن فيهما كل الإحسان حتى بلغت شهرته الآفاق .. مات بوباء الطاعون الذي انتشر في دمشق سنة 1081 هجرية . خلاصة الأثر 390/2 – 404 . وانظر القصيدة في ديوان ابن النقيب ، تحقيق عبد الله الجبوري ، طبعة مجمع اللغة العربية ، دمشق 1963م ، ص 93

ولم يكن ابن النقيب بِدعاً في تمجيد هذا الوزير الفارس ، فكثير من شعراء العصر العثماني تغنوا بفتح قلعة "قندية" ، وامتدحوا إقدام هذا الوزير وشجاعته ، كما أشادوا بعلمه وتقواه ونصرته للإسلام(1) .

أما رجال الدين والعلماء والأدباء فقد فازوا بنصيب الأسد من شعر المديح في العصر العثماني ، وقد تنوعت الصفات التي وصفهم الشعراء بها ، فإلى جانب الصفات الخاصة التي تتصل بعملهم وعلمهم مدحوهم – غالباً – بالصفات التقليدية كالشجاعة ، والسخاء ، والتقوى ، وحسن الرأي ، وعراقة الأصل .. ، من ذلك ما ينطوي عليه قول ابن القطان(2) في مدح القاضي علاء الدين علي بن عبد الله العشاري الحلبي المعروف بابن الحنبلي(3) :

**ضاعتْ بِمنْصِبهِ الشهباء وهو بها    لِنَصرةِ الحق لا وانٍ ولاَ قَلق**
**يؤمُّه العاجِز الملهوفُ ينجده    نعم ويخرجه من أضيق الطرق**
**له السيادةُ في الدنيا مؤَبدةٌ    على الدوامِ مدى الأيامِ في نَسق**
**قاضِي القُضاةِ رقَى في المجدِ منزلةً    تَعلُو على الدهرِ والأفْلاكِ والأُفُق**
**يا من بِهِ حلَب أَحوالُها صلُحتْ    وباتَ ساكنُها بِالأمن مِن فَرق**
**للهِ درك يا مولاي مِن رجلٍ    لِسانُه ناطِقٌ بِالحق منْطلِق**

لقد خص ابن النقيب ممدوحه بالصفات التي يتصف بها القاضي النزيه ، فمدحه بالعدل ، ونصرة الحق ، والانتصار للضعيف .. ، ثم مدحه بالصفات العامة التي يشترك فيها العلماء .

---

(1) انظر مثلاً قصيدة مصطفى بن عثمان البابي الحلبي قاضي المدينة المنورة ، التي يقول في مطلعها :

**لك اللهُ مِن نَدبٍ إذا هم صمما    وطلاع أَنْجادٍ إذا أَم تَمما**

المحبي : خلاصة الأثر 355/1 .

(2) هو الشاعر علي بن عبد الله المعروف بابن القطان ، المتوفى سنة سنة 932هـ .

(3) أحمد فوزي الهيب : الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1986م ، ص 240 .

ومن القصائد الطويلة الجامعة للصفات والمعاني التي مدِح بها القضاة والعلماء قصيدة الصنعاني([1]) في مدح القاضي محمد بن علي الشوكاني([2]) ، التي منها قوله([3]) :

قَاضٍ بِبهجتِهِ الأيام مشْرقَةً     كَالشمس لكِن نُور الشمس لم يدمِ
فَالحمد للهِ دنْيانَا بِبهجتِهِ     إشْراقَها غَير مسلُوخٍ عن الظلَمِ
قَاضٍ إذا جِئْتَه يوماً لَقِيتَ بِهِ     كُل الأفَاضِل مِن عربٍ ومِن عجمِ
يخْشَى الخُصوم ارتِعاداً مِن مهابتِهِ     حتى كَأن بِهم ضرب مِن اللممِ
لأن ما أَضمروه في فَراستِهِ     مِن حسن إيمانِهِ نَار على علَمِ

إلى غير ذلك من قصائد المديح الطوال التي خلّدت ذكر العلماء والقضاة المنتشرين في أرجاء الدولة العثمانية المترامية الأطراف([4]) .

ويدخل مدح الشعراء للكُتّاب ، وأصحاب الكتب والمؤلفات ، في باب المودة الصادقة – غالباً - ، والإعجاب بمناقب الممدوح ، وتقريظ صفاته التي تتصل بالفصاحة ، وجودة الألفاظ ، وجمال المعاني ، وسعة الثقافة ، إضافة إلى الصفات العامة المشتركة ، وطبعاً تتفاوت الصفات حسب مكانة الممدوح ، ورتبته إذا كان كاتباً في ديوان الإنشاء ، ومن المدائح السيارة في هذا الباب قصيدة فتح الله بن النحاس([5]) في مدح رئيس ديوان الكتاب بدمشق ، مراد بن هداية الله([6]) ، التي يقول فيها([7]) :

---

([1]) يقول الشوكاني في تعريفه : "السيد أحمد بن علي بن محسن بن الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم الصنعاني ، ولد تقريباً سنة 1150 . واشتغل بطلب العلم بعد أن قارب الخمسين من عمره . ثم قرأ علي في النحو ، والصرف ، والمنطق ، والمعاني ، والبيان ، والحديث ، والتفسير وأدرك إدراكاً كاملاً لاسيما في العلوم الآلية . وفهمه جيد وفكره صحيح وتصوره حسن وإدراكه كامل .." . البدر الطالع 58/1 .

([2]) وهو مؤلف كتاب "البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع" ، المتوفى سنة 1250 هجرية .

([3]) البدر الطالع 59/1 .

([4]) انظر مثلاً : ريحانة الألبا 50/1 ، 91-93 ، 129 . ونفحة الريحانة 19/1 ، 93 ، 139 .

([5]) هو فتح الله بن عبد الله بن النحاس الحلبي ، أكثر من التنقل ، دخل دمشق مرات ، وأقام بمصر مدة .. توفي بالمدينة المنورة سنة 1052هـ . انظر ترجمته في نفحة الريحانة 507/2 – 533 ، وخلاصة الأثر 354/4 – 355 .

([6]) هو مراد بن هداية الله العجمي الأصل الدمشقي المولد .. توفي وهو عائد من الحج سنة 1043 هجرية . انظر : خلاصة الأثر 354/1 .

([7]) خلاصة الأثر 354/1 – 355 .

بِصَباحِ وجهِكَ تُشْرِقُ الأنْوار          ولِبابِ مجدِكَ تَهرع الأمجاد
وإِذا جرى ذِكْر الأنَامِ بِمجلِسٍ          بدءوا بِذِكْرِك وانْتَهى الأعداد
سجدتْ لك الأفْلاك حِين رفَعتَها          والغَاب تَرفَع ذِكْره الآساد
حيرتَ حذاقَ الحِسابِ بِفِكرةٍ          تَركَتْهم وأُلوفُهم آحاد
قُس الفَصاحةِ([1]) لو نَطَقْتَ سحرتَه          ولَود لو أَن الحدِيثَ يعاد
لم يسبِقُوك وإِن سبِقْتَ بِوالِدٍ          فَكِلاهما في المأْثِراتِ جواد
ما المجد إلاّ أَن يكُون وراثَةً          وتَزيد عن آبائِها الأولاد
مِنْكُم بدا نَجم الهدايةِ لِلْعلا          وعشَا لِنَارِ قِراكُم القُصاد
كُل يؤمِلُ أَن يراد سِوى الذِي          خَلَع القَبولُ علَيهِ وهو يراد
إِن السِيادةَ فِي ذُراك تَعوذَتْ          بِك أَن يمِد يداً لها الحساد
عزماتُ مِثْلك لا تُعاب بِحِدةٍ          بِيض الصوارِمِ كُلهن حِداد
هذَا الغَمام على الخَلائِق رحمةً          وصِفَاتُه الإبراقُ والإرعاد
يا دوحةً ظِل السعادةِ ظِلها          لا زالَ حولك ظِلك المياد
ورعى حِماك مِن العِنَايةِ حارس          وسقَى ثَراك مِن الحيا عِهاد

لقد زاوج الشاعر بين العام المشترك من الصفات المحمودة ، والخاص الذي يميز الكُتاب والأدباء ، ثم أضفى على العام منها خصوصية تتصل بتفرد هذا الممدوح ، فمن بهاء طلعته يستمد الصباح أنواره ، وطيب ذكره يغني عن ذكر سواه من الأماجد ، وهو القمر الذي تستمد النجوم منه ضياءها .. ثم يجعل الشاعر هذه المناقب مدخلاً للخاص الذي يميز ممدوحه عن أهل البراعة والبيان ، فيمتدح براعته في الحساب مبيناً أنها لا تدانيها براعة ، وفصاحته التي يغبطه عليها فصحاء العرب أمثال "قُس بن ساعدة" ، ثم يجتهد في تأصيل براعته وفصاحته ، ويمدح الوالد المورث ، ويؤثر ولده عليه بما يتفوق الأبناء على الآباء ، ويجعله القدوة الذي يهتدي به طلاب المجد والعلا . ويعود الشاعر ثانية للعام المشترك من الصفات ، ويمزجها مع ما يخص به ممدوحه ، فيجعل السيادة تخشى عليه عيون الحاسدين ، ثم عاد للحديث عن علو همته ، وسخاء يده ، وختم بالدعاء له بدوام السعادة ، وطول العمر ، وأن يكلأه الله عز وجلّ برعايته .

---

([1]) أظن أن الشاعر يشير إلى "قُس بن ساعدة" ، الخطيب الجاهلي المشهور .

## المعطى الدلالي لشعر المديح وطابعه الديني

لقد استقصى الشاعر كل ما يمكن أن يمدح به إنسان ماجد ، وكاتب متميز ، وعبر عن إعجابه بممدوحه ، وصدق أحاسيسه تجاهه ، وشف الدعاء له في ختام القصيدة عن روح المودة ..

وقد أفاض الشعراء في الثناء على الأدباء المجتهدين ، وأشادوا بكتبهم ومؤلفاتهم ، ومن شواهد هذا المديح نذكر قصيدة للشاعر ابن المنقار الدمشقي(1) في مديح مؤلف كتاب "ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ، شهاب الدين الخفاجي(2) ، يقول في مطلعها(3) :

**بِأُفْقِ دِمشْقَ قَد طَلَعَ الشهاب    أَضاءتْ مِنه هاتِيك الرحاب**
**همام جد في طَلَبِ المعالي    فَأحرز شَأْوها مِنه الطلاب**
**ومولى شَأنُه تَحرير عِلْمٍ    وتَقْرير المباحِثِ والخِطَاب**
**حواشِيهِ منَقحةُ المعاني    ومِن فَن البيان بِها اللباب**
**فَبدر علاه مكْتَمِلٌ مِنير    يفِيض بِدرها مِنْه العباب**
**فَفِي التفْسِير مجتَهد وفِيما    نَحاه رأْيه أَبداً صواب**
**فَلا يلْقَى لَه نَظِير    وليس له سِوى التحرير داب**

تلتقي معاني قصيدة ابن المنقار في مدح الخفاجي مع معاني قصيدة ابن النحاس السابقة ، فكل من الممدوحين أديب بارع ، وما ذكراه يمثل معظم الصفات التي يمكن أن يمدح بها الأدباء ، وإن كان ابن المنقار قدم الصفات الخاصة على العامة المشتركة(4) ، وميز ممدوحه بما يختص به من العلوم والمعارف وتحرير الكتب .

---

(1) هو عبد اللطيف بن يحي بن شمس الدين محمد بن القاسم ، ابن المنقار الدمشقي ، المتوفى سنة 1057هـ ، وهو سليل عائلة اشتهرت بالشعر والعلم ، وأشهرهم جده شمس الدين محمد . راجع في ترجمته : ريحانة الألبا 1/ 131 . وخلاصة الأثر 20/3.

(2) هو شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (977 – 1069هـ) ، وقد تحدث محقق الكتاب عبد الفتاح محمد الحلو عن حياته وكتبه المنشورة والمخطوطة . راجع ريحانة الألبا 37/1 .

(3) ريحانة الألبا 131/1 – 132 .

(4) تشتمل باقي أبيات القصيدة على الصفات العامة المشتركة التي يمكن أن يمدح بها الأدباء وغيرهم من ذوي الجاه أو النفوذ .

ومن شعر التكسب في هذا العصر نذكر إلماح ابن النحاس الحلبي في نهاية إحدى قصائده التي قالها في مدح الأمير منجك[1] :

**حرسته شَوكةُ حسنِهِ    عن أَن تُمد له الأيادِي**
**والعنْدلِيب أَمامه    بِفَصِيح نَغمتِهِ ينَادِي**

## الخاتمة :

تحدثنا في هذا البحث عن طبيعة المؤامرة التي أحاطت بالعصرين المملوكي والعثماني ، وما ترتب عليها من إعراض الدارسين نتاج العصرين والتسليم بما ألصق بهما من صفات الضعف والانحطاط .

ثم استعرضنا من مظاهر الحياة العلمية والثقافية قدراً يسيراً ندفع به دعاوى المغرضين ونحث الدارسين الموضوعيين على مراجعة مواقفهم من العصرين ، واتخذنا فن المديح وما تبوح به مضامينه ودلالاته شاهداً على مستوى الإبداع الفني في العصرين . وقد استعرضنا بواعث فن المديح في العصرين وتوصلنا إلى القول أن بواعث مديح التزلف والتكسب قد أصابها الضمور ، وأن المديح الصادق قد استمد أسباب قوته وتدفقه من التفاف الأمة حول الإسلام ، والجهاد في سبيل الله لتحرير البلاد والعباد من أيدي التتار والصليبيين في العصر المملوكي ، ثم التفافهم حول فتوحات العثمانيين التي مدت رقعة دولة الإسلام في معظم بلدان القارات الثلاث ، آسيا وإفريقيا وأوروبا ، الأمر الذي جعل الشعراء يلهجون بالثناء على قادتهم ، ويمجدون البطولة ويمدحون الأبطال المجاهدين .

كذلك من نتائج هذا البحث القول أن روح الإسلام التي سادت ذلك العصر كانت وراء إشادة الشعراء بالعلماء والقضاة والفقهاء والكتاب والأدباء ، وتقدير جهودهم العلمية وإبداعاتهم الأدبية .

هذا بالإضافة إلى ما لاحظناه من تشكل المحمول الدلالي لشعر المديح في العصرين بألوان الثقافة المختلفة التي كانت سائدة في مختلف بيئات العصرين ، وكيف انصهرت الثقافات الأجنبية المتنوعة في بوتقة الثقافة العربية الإسلامية .

---

[1] هو الشاعر الأمير منجك بن الأمير محمد بن منجك ، الشركسي الدمشقي ، ولد بدمشق سنة 1007 ، وتوفي فيها سنة 1080 هجرية . انظر ترجمته في : خلاصة الأثر 409/4 . وريحانة الألبا 232/1 . ونفحة الريحانة 1/ 136 .

## المصادر والمراجع

1. أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، مطبعة القدس، القاهرة 1351هـ .
2. أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد قرقزان ، الطبعة الأولى ، دار المعرفة ، بيروت 1988م .
3. أحمد صادق الجمال : الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي ، طبعة الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة 1966 .
4. أحمد فوزي الهيب : الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء ، الطبعة الأولى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت 1986م .
5. تقي الدين أحمد بن علي المقريزي : الخطط ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت 1998م .
6. جلال الدين السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ط1 ، دار الكتب العلمية، بيروت 1997م .
7. جمال الدين بن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية ، 1956م .
8. درويش الجندي : ظاهرة التكسب وأثرها في الشعر العربي ونقده ، طبعة دار نهضة مصر 1969م .
9. ديوان ابن النقيب ، تحقيق عبد الله الجبوري ، طبعة مجمع اللغة العربية ، دمشق 1963م .
10. ديوان ابن الوردي ، مطبعة الجوائب ، القسطنطينية 1300هـ .
11. ديوان ابن مليك الحموي ، المطبعة العلمية ، بيروت 1312هـ .
12. ديوان البوصيري ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، الطبعة الثانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة 1973م .
13. ديوان صفي الدين الحلي ، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) .
14. السلوى الأندلسي ، عبد القادر بن عبد الرحمن : الكوكب الثابت في أخبار الشعراء وغيرهم من ذوي المناقب . مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم 325 تاريخ تيمور .
15. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، الطبعة الأولى ، دار الجيل ، بيروت 1992م .
16. شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تحقيق محمد حور ، منشورات المجمع الثقافي ، أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة 2003م .

17. شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي : ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1967م .
18. عبد الفتاح سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ، ط3 ، مكتبة الأنجلو المصرية 1994م .
19. عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، طبعة دار التراث ، بيروت 1968م.
20. على بن أبي بكر الهيثمي : مجمع الزوائد ، طبعة دار الريان للتراث ، القاهرة 1407 هـ .
21. عمر موسى باشا : ابن نباته المصري أمير شعراء المشرق ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف، مصر 1992م .
22. عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربي – العصر العثماني ، الطبعة الأولى ، دار الفكر المعاصر ، بيروت 1989م .
23. قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ، الطبعة الأولى ، مصر 1998م .
24. القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، طبعة دار الكتب المصرية 1913 .
25. محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، طبعة دار صادر ، بيروت (بدون تاريخ) .
26. محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي : ذيل نفحة الريحانة ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1971م.
27. محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين المحبي : نفحة الريحانة ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة 1968م.
28. محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق إحسان عباس طبعة دار الثقافة ، بيروت 1973م .
29. محمد بن علي الشوكاني : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، وضع حواشيه خليل المنصور ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت1.
30. محمد زغلول سلام : الأدب في العصر المملوكي ، طبعة دار المعارف بمصر 1971م .
31. محمد قطب : واقعنا المعاصر ، الطبعة الأولى ، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، السعودية 1986م .
32. محمود الربداوي : ابن حجة الحموي شاعراً وناقداً ، طبعة دار قتيبة 1982م .

33. نبيل أبو علي : البوصيري شاهد على العصر المملوكي ، الطبعة الرابعة ، دار المقداد للطباعة ، غزة 2005م.
34. نبيل أبو علي : قصة الحروب الصليبية ، الطبعة الأولى ، مطبعة المقداد ، غزة 1992م .
35. نجم الدين محمد بن محمد الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، تحقيق جبرائيل سليمان جبور ، الطبعة الثانية ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت 1979م .